سلسلة الموسوعة التراثية للشباب

البيان والتبيين

للجاحظ

بقلم

محمد رجب

مكتبة العبيكان

obeikandl.com

ⓒ مكتبة العبيكان، ١٤٢٢هـ

فهرسة مكتبة الملك فهد الوطنية أثناء النشر

لجنة التأليف والترجمة بمكتبة العبيكان

البيان والتبيين لأبي عثمان عمرو بن بحر الجاحظ - الرياض

٣٣ص، ١٧×٢٢سم

ردمك: ٧-٩٦٨-٢٠-٩٩٦٠

١- الأدب العربي - مجموعات ٢- الجاحظ، عمرو بن بحر، ت ٢٥٥هـ أ- العنوان

ديوي ٨١٠,٨ ٢٢/١٤٦٨

رقم الإيداع: ١٤٦٨/٢٢ ردمك: ٧-٩٦٨-٢٠-٩٩٦٠

الطبعة الأولى

١٤٢٢هـ/٢٠٠١م

حقوق الطباعة محفوظة للناشر

الناشر

مكتبة العبيكان

الرياض - العليا - تقاطع طريق الملك فهد مع العروبة

ص.ب: ٦٢٨٠٧ الرياض: ١١٥٩٥

هاتف: ٤٦٥٤٤٢٤ فاكس: ٤٦٥٠١٢٩

obeikandl.com

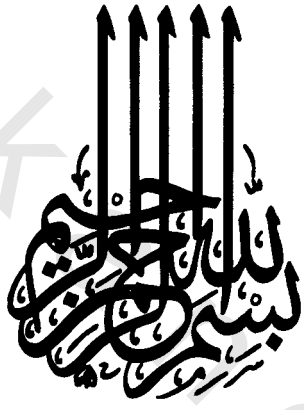

obeikandl.com

obeikandl.com

التعريف بالمؤلف:

هو: أبوعثمان عمرو بن بحر بن محبوب بن فزارة الليثي الكناني، المولود أول سنة (١٥٠) للهجرة.

تحدث الجاحظ عن مولده فقال: أنا أسنُّ من أبي نواس بسنة، ولدت في أول سنة (١٥٠) للهجرة وولد في آخرها.

ولد الجاحظ في مدينة البصرة، ونشأ بها، وظل عاكفاً على الدرس والاطلاع، ورحل إلى المدن الإسلامية يبحث ويستقرئ ويلقى العلماء ويأخذ عنهم، ثم عاد إلى البصرة بما حصَّل من العلوم وضروب الآداب فأعمل فيها عقله وقلمه فألَّف وأجاد.

وفي سن الخمسين رحل إلى بغداد، وكان ذلك في عصر الخليفة العباسي المأمون، واتخذ من بغداد دار إقامة، وقد وصلها سنة (٢٠٤) للهجرة.

تلقى الجاحظ علومه على شيوخ البصرة والكوفة، وكان يذهب إلى مِرْبَد البصرة ويلتقي بالأعراب الواردين، ويتلقى عنهم الفصاحة.

وقد اشتهر الجاحظ بلقبه هذا؛ لأنه كان جاحظ العينين، وكان بالطبع يتبرَّم بمن يدعوه باللقب؛ لأنه أحب أن يدعُوَه الناس باسم عمرو، فهو اسم

المشاهير في الجاهلية والإسلام مثل: عمرو بن العاص، وعمرو بن معديكرب.

كان الجاحظ يعيش في رغد من العيش، ومن أشهر ما يحكى في هذا الصدد أن بعض إخوانه دخل عليه يوماً وسأله:

كيف حالك يا أبا عثمان؟

فأجابه من فوره: سألتني عن الجملة فاسمعها مني واحداً واحداً: حالي أن الوزير يتكلمُ برأيي، وينفِّذُ أمري، ويواتر الخليفةُ الصلات إليّ، وآكل من لحم الطير أسمنها، وألبس من الثياب ألينها، وأجلس متكئاً على هذا الريش، ثم أسير على هذا حتى يأتي الله بالفرج..!

ولقد عيّن الخليفة المأمون الجاحظَ في ديوان الرسائل، لكن سرعان ما بادر الجاحظ إلى الاستعفاء من المنصب؛ معتذراً للخليفة فأعفاه.

يحكى عن ولع الجاحظ بالكتب أنه كان يكتري دكاكين الوراقين، يبيت فيها للنظر.

وكان للجاحظ تلامذة نبهاء منهم المبرِّد صاحب كتاب (الكامل).

وعن تقدمه في هذا الفن، وقيمة كتابه يقول ابن خلدون عن الجاحظ: «سمعنا من شيوخنا في مجالس التعليم أن أصول فن الأدب وأركانه أربعة

هي: (أدب الكاتب) لابن قتيبة، وكتاب (الكامل) للمبرّد، وكتاب (البيان والتبيين) للجاحظ، وكتاب (النوادر) لأبي علي القالي».

ويقول المسعودي: «وللجاحظ كتب حسان، منها كتاب (البيان والتبيين) وهو أشرفها، لأنه جمع فيه من المنثور والمنظوم، وغرر الأشعار، ومستحسن الأخبار، وبليغ الخطب، ما لو اقتصر عليه مقتصر لاكتفى به».

ويقول أبوالقاسم الإسكافي: «استظهاري على البلاغة بثلاثة: القرآن، وكلام الجاحظ، وشعر البحتري».

وألّف فيه التوحيدي (أبوحيان) كتاباً اسمه (تقريظ الجاحظ) وصفه فيه بقوله: «وهمّك من رجل، وناهيك من عالم، وشرعك من صدوق».

مرض الجاحظ مرضاً شديداً عانى منه ثماني سنوات كاملة؛ فقد أصيب بالفالج (الشلل) في جنبه الأيسر وتوفي في نهاية سنة (٢٥٥) للهجرة.

* * *

حكاية كتاب البيان والتبيين:

ألف الجاحظ كتابه (البيان والتبيين) وقدمه إلى القاضي أحمد بن أبي دؤاد، فأجازه عليه بخمسة آلاف دينار..!

يعد كتاب (البيان والتبيين) مجموعة مختارة أدبية ممتازة في الشعر والنثر، وقد قصد الجاحظ من الكتاب أن يستنبط أصول البيان العربي، ويؤكد أن البيان ليس شيئاً مما يجري به الطبع فحسب، لكنه يحتاج أيضاً إلى تمييز وسياسة، وإلى ترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة.!

تناول الجاحظ في كتابه الضخم أيضاً الحديث عن الصفات الصوتية، والعيوب التي ينبغي للخطيب ترويض نفسه على تجنبها، كاللثغة واللفف، والتمتمة والفأفأة، وتحدث عن ترتيب المعاني واختيار الألفاظ الملائمة، ورعاية الصلة بين كل موضوع وأسلوبه.

كتاب (البيان والتبيين) وجبة دسمة لمن أراد الشبع من الأدب، شعراً ونثراً، وبنيان شامخ من المعرفة لمن أراد الصعود إلى ذروة العلم، فيا أيها الشباب هنيئاً لكم بهذا الكتاب، الذي نعرض له ببعض الإيجاز والتعريف، عسى أن يؤتي هذا العرض ثماره بإذن الله، وحسبنا من الله الجزاء والأجر..

* * *

إنه كتاب يشمل العديد من الموضوعات، لكن أبرز هذه الموضوعات الحديث عن ماهية البيان والتبيين، وتقريب مفهومها من الأذهان، والحديث عن الأدب والأدباء، ونماذج من الشعر والشعراء، وعن الخطابة وأهميتها

وأشهر الخطباء، وعن الدفاع عن العرب الذين هم أفصح الشعوب والأمم، ودفع ما ينسب إليهم من عيّ وعجز، ورد أقوال الشعوبية الباطلة وأراجيفها إلى صدورها، ويسلط عليهم الجاحظ عصاه الغليظة، عصا البيان والفصاحة في جزء هام من كتابه اشتهر بكتاب العصا.!

فَهَلُمَّ أعزائي الشباب إلى وليمة الجاحظ الحافلة في كتابه العظيم:

(البيان والتبيين)

* * *

مقصود الجاحظ بالبيان والتبيين:

البيان عند الجاحظ هو ما يتبين به الشيء من الدلالة أي: يتضح، أما التبيين فهو الإيضاح والوضوح، وفي المثل: قد بيَّن الصبحُ لكل ذي عينين، أي: تبين..!

يقول أبوعثمان عمرو تعريفاً للبيان: الدلالة الظاهرة على المعنى الخفي هي البيان الذي سمعت الله تبارك وتعالى يمدحه ويدعو إليه ويحث عليه، وبذلك نطق القرآن، وبذلك تفاخرت العرب، وتفاضلت أصناف الأعاجم.

والبيان اسم جامع لكل شيء كشف لك قناع المعنى، وهتك الحجب دون الضمير حتى يُفضي السامع إلى حقيقته، ويهجم على محصوله كائناً

ما كان ذلك البيان، ومن أي جنس كان ذلك الدليل؛ لأن مدار الأمر والغاية التي إليها يجري القائل السامع إنما هو الفهم والإفهام، فبأي شيء بلغت الإفهام، وأوضحت عن المعنى فذلك هو البيان.

والدلالات على المعاني المستورة تتخذ صوراً خمساً:

اللفظ، والإشارة، والعقْدُ، والخط، والحال.

ويورد الجاحظ أقوال القدماء والمعاصرين له في هذا المضمار يقول: وقالوا: البيان بصر، والعيّ عمى، كما أن العلم بصر والجهل عمى، والبيان من نتاج العلم، والعي من نتاج الجهل.

قال سهل بن هارون: العقل رائد الروح، والعلم رائد العقل، والبيان ترجمان العلم.

وقالوا: حياة المروءة الصدق، وحياة الروح العفاف، وحياة الحلم العلم، وحياة العلم البيان.

قال يونس بن حبيب: ليس لعييٍّ مروءة، ولا لمنقوص البيان بها، ولو حكّ بيافوخه عنان السماء.

وقالوا: شِعر الرجل قطعة من كلامه، وظنه قطعة من علمه، واختياره قطعة من عقله.

وقال ابن الثوام: الروح عماد البدن، والعلم عماد الروح، والبيان عماد العلم..

ويتحدث الجاحظ عن الإشارة ويقول: إنها تكون باليد والرأس والعين والحاجب والمنكب، والإشارة ذات صورة معروضة وحلية موصوفة على اختلاف طبقاتها ودلالتها.. ولولا الإشارة لم يتفاهم الناس، وقد قال الشاعر من دلالات الإشارة:

وللقلب على القلـ ـب دليلٌ حين يلقاه
وفي الناس منَ النا س مقاييسٌ وأشباهُ
وفي العينِ غِنى المر ء أنْ تنطقَ أفواهُ

وأنشد أبوالرديني العُكليُّ في تنسم الذئب للريح واستنشاقه واسترواحه:

يستخبر الريح إذا لم يسمعِ بمثلِ مقراع الصفا الموقَّعِ[1]

وقال عنترة بن شداد العبسي، وجعل نعيب الغراب خبراً للزاجر:

حَرِقُ الجناح كأن لَحْيَيْ رأسِهِ جَلَمانِ بالأخبارِ هَشٌّ مولَعُ[2]

---

(١) المقراع: الفأس.

(٢) الحرق: الأسود.

وقال الراعي:

إن السماء وإنَّ الريح شاهدةٌ والأرضُ تشهدُ والأيامُ والبلدُ
لقد جزيتَ بني برٍ ببغيهمُ يومَ الهباءَةِ (١) يوماً ما له قَوَدُ (٢)

وقال نُصَيْبٌ في هذا المعنى يمدح سليمان بن عبدالملك:

أقولُ لركبٍ صادرينَ لقيتُهم قفا ذاتِ أوشلٍ وأولاكَ قاربُ
قفوا خبّرونا عن سليمانَ إنني لمعروفه من آل وَدَّانَ طالبُ
فعاجوا فأثْنَوا بالذي أنتَ أهلُهُ ولو سكتوا أثنتْ عليك الحقائبُ

وهذا كثير جداً.

وقال علي بن أبي طالب رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُ: «قيمة كل إنسان ما يحسن».

قال عامر بن عبدالقيس: الكلمة إذا خرجت من القلب وقعت في القلب، وإذا خرجت من اللسان لم تجاوز الآذان..!

قال الحسن البصري رضي الله تعالى عنه، وقد سمع متكلماً يعظ فلم تقع موعظته بموضع من قلبه: يا هذا إن بقلبك لشراً أو بقلبي..!

---

(١) يوم الهباءة: من أيام العرب الشهيرة.

(٢) القود: القِصاص من القاتل.

وقال علي بن الحسين بن علي: لو كان الناس يعرفون جملة الحال في فضل الاستبانة، وجملة الحال في صواب التبيين لأعربوا عن كل ما تخلَّج في صدورهم، ولوجدوا من برد اليقين ما يغنيهم عن المنازعة إلى كل حال سوى حالهم.

أعزائي الشباب: هل جهارة الصوت من حسن البيان..؟

نعم..! وفي ذلك يقول شبّة بن عقَال:

ألا ليتَ أمَّ الجهمِ واللهُ سامعُ ترَى حيثُ كانتْ بالعراق مقامي
عشيةَ بَذَّ الناسَ جريي ومنطقي وبَذَّ كلامَ الناطقين كلامي

وقال طحلاءُ يمدح معاوية بالجهارة وبجودة الخطبة:

ركوبُ المنابرِ وثَّابُها مِعَنٌّ بخطبتهِ مِجْهَرُ
تُريغُ إليهِ هوَادي الكلامِ إذا ضل خطبته المِهْذَرُ

ويورد الجاحظ أقوال القدماء في حسن البيان وفي التخلص من الخصم بالحق والباطل، في تخليص الحق من الباطل، وفي الإقرار بالحق وفي ترك الفخر بالباطل.

قال أعرابي يذكر حماس بن ثامل:

برئتُ إلى الرحمن من كل صاحبٍ أصاحبه إلا حماسَ بن ثامل
وظني به بين السماطينِ أنه سينجو بحقٍ أو سينجو بباطلِ

وقال العجير السلولي:

وإنّ ابنَ زيدٍ لابنُ عمي وإنه لبَلالُ أيدي جلّة الشُّولِ بالدَّمِ
طلوعُ الثنايا بالمطايا وإنّه غداة المرادي لَلخطيبُ المقدَّمُ
يسرُّكَ مظلوماً ويرضيك ظالماً وَيكفيك ما حُمِّلْتَهُ حين تغرَمُ

وقال الحسن البصري: لسان العاقل من وراء قلبه، فإذا أراد الكلام تفكر، فإن كان له قال، وإن كان عليه سكت، وقلب الجاهل من وراء لسانه، فإن همّ تكلم به، له أو عليه.

قال بعض الربانيين من الأدباء وأهل المعرفة من البلغاء ممن يكره التشدق والتعمق، ويبغض الإغراق في القول والتكلف: أنذركم حسن الألفاظ، وحلاوة مخارج الكلام، فإن المعنى إذا اكتسى لفظاً حسناً، وأعاره البليغ مخرجاً سهلاً، ومنحه المتكلم قولاً متعشقاً صار في قلبك أحلى ولصدرك أملى، والمعاني إذا كُسيت الألفاظ الكريمة، وأُلبست الأوصافَ الرفيعة، تحوّلت في العيون عن مقادير صورها، وأربت على حقائق أقدارها بقدر ما زُينت وعلى حسب ما زُخرفت، فقد صارت الألفاظ في معنى المعارض،

وصارت المعاني في معنى الجواري، والقلب ضعيف، وسلطان الهوى قوي، ومدخل خدع الشيطان خفي.

قال ﷺ: «**إن من البيان لسحراً**».

وقال عمر بن عبدالعزيز لرجل أحسن في طلب حاجة، وتأتّى لها بكلام وجيز ومنطق حسن: هذا -والله- السحر الحلال.

ويخلص الجاحظ من ذلك إلى القول: عليك أن تجتنب السُّوقيَّ والوحشي، ولا تجعل همّك في تهذيب الألفاظ، وشغلك في التخلص إلى غرائب المعاني، وفي الاقتصار بلاغ، وفي التوسط مجانبة للوعورة، والخروج من سبيل من لا يحاسب نفسه، كما قال الشاعر:

عليك بأوساط الأمور فإنها ... نجاة ولا تركب ذلولاً ولا صعبا

لا تذهبن في الأمور فرطاً ... لا تسألن إنْ سألتَ شططا

وكنْ منَ الناس جميعاً وسطاً

علينا أيها الشباب الصالح أن نقصر كلامنا؛ أي: نوجزه، لأنه خير الكلام ما قلَّ ودلَّ، قال أعرابي للحسن البصري: علمني ديناً وسطاً، لا ذاهباً شطوطاً ولا هابطاً هبوطاً.

فأجاب الحسن: لئن قلت ذاك؛ إن خير الأمور أوساطها..

وقال عبدالله بن مسعود: خير الأمور أوساطها، وما قلّ وكفى خير مما كثر وألهى، نفس تنجيها خير من إمارة لا تحصيها.

وكان ﷺ يقول: «**قولوا بقولكم ولا يستحوذنَّ عليكم الشيطان**»، وقال: «**وهل يكبُّ الناس على مناخرهم في نار جهنم إلا حصائد ألسنتهم؟!**».

* * *

البلاغة:

ويتحدث الجاحظ عن البلاغة، ويورد الأقوال في شأنها...

يقول: وقال بعضهم -وهو من أحسن ما اجتبيناه ودونّاه-: لا يكون الكلام يستحق البلاغة حتى يسابق معناه لفظه ولفظه معناه، فلا يكون لفظه إلى سمعك أسبق من معناه إلى قلبك.

ويعرّف الجاحظ البلاغة، فهي اسم جامع لمعان تجري في وجوه كثيرة، فمنها ما يكون في السكوت، وما يكون في الاستماع، ومنها ما يكون في الإشارة، ومنها ما يكون في الحديث، ومنها ما يكون جواباً، ومنها ما يكون ابتداء، وما يكون شعراً، وما يكون سجعاً وخطباً، ومنها ما يكون رسائل، والإيجاز هو البلاغة.

وقال حمزة بن بيض:

لم يكن عن جناية لحقتني ... لا يساري ولا يميني جنتني
بل جناها أخٌ عليّ كريمٌ ... وعلى أهلها براقِشُ تجني

فقد غزا الغزاة إِحدى النواحي فضلوا الطريق إِليها، ولم يدلّهم عليها إِلا نباح الكلبة براقِشُ، وكانت كلبة لسيد الناحية، فأسرع الغزاة واستباحوا أهلها، ولو سكتت ولم تنبح لسلم أهلها، فضرب حمزة بن بيض بها المثل.

وقال الأخطل:

تَنِقٌّ بلا شيءٍ شيوخُ محاربٍ ... وما خِلْتُها كانت تريشُ ولا تبري
ضفادع في ظلماء ليلٍ تجاوبتْ ... فدلّ عليها صوتها حيَّةَ النهرِ

قال ﷺ: «**إن الله يبغض البليغ الذي يتخلّل بلسانه كما تخلّل الباقرة بلسانها**» رواه أحمد. انظر صحيح الجامع (١٨٧٥).

وقيل: إن كان الكلام من فضة فالسكوت من ذهب، ولقد عاب النبيّ ﷺ المتشدقين والثرثارين، والأعرابي المتشادق، فمن تكلّف ذلك منهم فهو أعيب والذم له ألزم، وقد كان الرجل من العرب يقف الموقف فيرسل عدة أمثال سائرة، وكان الناس جميعاً يتمثلون بها لما فيها من الانتفاع، ومدار العلم على الشاهد والمثل.

لكن للجاحظ جانبه الإيجابي إذ يقول: إن الصمت ليس كله أفضل من الكلام كله، فقد قال الله عز وجل في كتابه العزيز: ﴿سَمَّاعُونَ لِلْكَذِبِ أَكَّالُونَ لِلسُّحْتِ﴾، فجعل سمعه وكذبه سواء.. وقال الشاعر:

بني عديٍّ ألا يُنهى سفيهكم إنّ السفيه إذا لم يُنهَ مأمورُ

وقال آخر:

فإنْ أنا لم آمرْ ولم أنهَ عنكما ضحِكتُ له حتَّى يلجَّ ويستشري

ولقد أرسل سبحانه وتعالى أنبياءه بالكلام لا بالصمت، ومواضع الصمت المحمودة قليلة، ومواضع الكلام المحمودة كثيرة، وطول الصمت يفسد البيان، وليس في الأرض كلام أمتع ولا أنفع ولا آنق ولا ألذ في الأسماع ولا أشد اتصالاً بالعقول السليمة ولا أفتق للسان ولا أجود تقويماً للبيان من طول استماع حديث الأعراب الفصحاء العقلاء، والعلماء البلغاء.

تعقيب: جاب الجاحظ بنا الآفاق أيها الشباب الطيب، ليحدثنا في إمتاع لا مثيل له عن البلاغة والبيان والتبيين وكيف الوصول إلى البلاغة، وهو دائم الإشارة بالأعراب الفصحاء، والعلماء البلغاء، الذين حرص على الالتقاء بهم في ورودهم إلى البصرة والكوفة وبغداد.. أولم يكن رسول الله ﷺ هو

قدوته الذي تأثر به الجاحظ في هذا السبيل..؟ أولم يتعلم ﷺ الفصاحة في بادية بني سعد، حيث تربى في حضن السيدة حليمة السعدية..؟

عليكم أعزائي الشباب بتقويم ألسنتكم والأخذ بالفصاحة، ذلك الكنز الثمين..!

* * *

اللثغة:

يحدثنا الجاحظ في دقة ومهارة عن اللثغة، بل وعن الحروف الأربعة التي تدخلها اللثغة وهي: الراء، والسين، والقاف، واللام.. يقول:

فاللثغة التي تعرض للسين تكون ثاء، كقوله لأبي يكسوم: أبي يكثوم، وكما يقولون: بُثرة، إذا أرادوا بسرة، وباثم الله، إذا أرادوا بسم الله.

والثانية اللثغة التي تعرض للقاف، فإن صاحبها يجعل القاف طاء، فإذا أراد أن يقول: قلتُ له، قال: طلتُ له. وإذا أراد أن يقول: قال لي، قال: طال لي.

وأما اللثغة التي تقع في اللام، فإن من أهلها من يجعل اللام ياء فيقول بدل قوله: اعتللتُ: اعتييتُ، وبدل جمل: جمي، وآخرون يجعلون اللام

كافاً كالذي عرض لعمر أخي هلال، فإنه كان إذا أراد أن يقول: ما العلّة في هذا؟ قال: ما اكعكّةُ في هذا؟

فأما اللثغة التي تقع في الراء فإن عددها يضعف على عدد لثغة اللام؛ لأن الذي يعرض لها أربعة أحرف: فمنهم إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمي، فيجعل الراء ياء، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمغ، فيجعل الراء غيناً، ومنهم من إذا أراد أن يقول: عمرو، قال: عمذ، فيجعل الراء ذالاً، ومنهم من يجعل الراء ظاء معجمة، فيقول إذا أنشد هذا البيت:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال: واستبدت مظة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

ومنهم من يجعل الراء غيناً معجمة، فإذا أراد أن ينشد هذا البيت:

واستبدت مرة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

قال: واستبدت مغة واحدة إنما العاجز من لا يستبد

كما أن الذي لثغته بالياء إذا أراد أن يقول: واسبتدت مرة واحدة، قال: واستبدت مية واحدة.

ويذكر الجاحظ مثالاً لأناس عانوا من اللثغة وعيوب اللسان.

أمثلة:

أتدرون أعزائي الشباب ما المثل الذي يسوقه الجاحظ؟! إنه نبيّ الله موسى بن عمران عليه السلام، وكذلك واصل بن عطاء.. يقول الجاحظ:

وسأل موسى عليه السلام حين بعثه إلى فرعون بإبلاغ رسالته، والإبانة عن حجته، والإفصاح عن أدلته، فقال حين ذكر العقدة التي كانت في لسانه: ﴿**وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي**﴾، وأنبأنا الله تبارك وتعالى عن جحود فرعون وخيلائه، فقال: ﴿**أَمْ أَنَا خَيْرٌ مِّنْ هَذَا الَّذِي هُوَ مَهِينٌ وَلَا يَكَادُ يُبِينُ**﴾، وقال موسى: ﴿**وَأَخِي هَارُونُ هُوَ أَفْصَحُ مِنِّي لِسَانًا فَأَرْسِلْهُ مَعِيَ رِدْءًا يُصَدِّقُنِي**﴾، وقال: ﴿**وَيَضِيقُ صَدْرِي وَلَا يَنطَلِقُ لِسَانِي**﴾، رغبة منه في غاية الإفصاح بالحجة، والمبالغة في وضوح الدلالة، لتكون الأعناق إليه أميل، والعقول عنه أفهم، والنفوس إليه أسرع.

ومن الدليل على أن الله عز وجل حل تلك العقدة، وأطلق ذلك التعقيد قوله: ﴿**قَالَ رَبِّ اشْرَحْ لِي صَدْرِي ﴿٢٥﴾ وَيَسِّرْ لِي أَمْرِي ﴿٢٦﴾ وَاحْلُلْ عُقْدَةً مِّن لِّسَانِي ﴿٢٧﴾ يَفْقَهُوا قَوْلِي ﴿٢٨﴾ وَاجْعَل لِّي وَزِيرًا مِّنْ أَهْلِي ﴿٢٩﴾ هَارُونَ أَخِي ﴿٣٠﴾ اشْدُدْ بِهِ أَزْرِي ﴿٣١﴾ وَأَشْرِكْهُ فِي أَمْرِي**﴾ إلى قوله: ﴿**قَالَ قَدْ أُوتِيتَ سُؤْلَكَ يَا مُوسَىٰ**﴾، فلم تقع الاستجابة على شيء من دعائه دون شيء لعموم الخير.

أما واصل بن عطاء فلما علم بأن اللثغة من المعايب الشنيعة، وأن البيان يحتاج إلى تمييز وترتيب ورياضة، وإلى تمام الآلة وإحكام الصنعة، وإلى سهولة المخرج وجهارة المنطق، وتكميل الحروف، وإقامة الوزن، وأن حاجة المنطق إلى الطلاوة والحلاوة كحاجته إلى الجلالة والفخامة، فإنه رام إسقاط الراء من كلامه، وإخراجها من حروف منطقه، فلم يزل يكابد ذلك ويغالبه، ويناضله ويساجله حتى انتظم له ما حاول، واتسق له ما أمل..!

تعقيب: فهل نستطيع أن نفعل مثلما فعل واصل..؟! إنه تقريباً هجر جميع الكلمات التي يدخل فيها حرف الراء.. لكن وما شأن القرآن؟ وكيف يفعل واصل بالآيات القرآنية التي لا تخلو من حرف الراء؟ وما الموقف مع سورة الضحى مثلاً وهي مفعمة بهذا الحرف..!

إن هذا شيء عجيب.. عجيب..!

ويورد أبوعثمان الجاحظ أمثلة على أولئك الذين حاولوا معالجة عيوب اللسان، ومنهم كسرى.

قال كسرى أنوشروان لوزيره بزُرَجُمَهْر: أي الأشياء خير للمرء العيي؟

قال: عقل يعيش به.

قال: فإن لم يكن له عقل؟

قال: فإخوان يسترون عليه.

قال: فإن لم يكن له إخوان؟

قال: فمال يتحبب به إلى الناس.

قال: فإن لم يكن له مال.

قال: فعي صامت.

قال: فإن لم يكن ذلك؟

قال: فموت مريح.

وقال موسى بن يحيى بن خالد، قال أبوعلي:

رسائل المرء في كتبه أدل على مقدار عقله، وأصدق شاهد على غيبه لك، ومعناه فيك من أضعاف ذلك على المشافهة والمواجهة.

وكانت لثغة محمد بن شبيب المتكلم بالغين، فإذا حمل على نفسه وقوّم لسانه خرج الراء، قال الضبي:

عليمٌ بإبدالِ الحروفِ وقامعٌ لكل خطيب يغلبُ الحقَّ باطله

وذكر الله تعالى جميل بلائه في تعليمه البيان، وعظيم نعمته في تقويم اللسان فقال: ﴿الرَّحْمَنُ ۝١ عَلَّمَ الْقُرْآنَ ۝٢ خَلَقَ الإِنسَانَ ۝٣ عَلَّمَهُ الْبَيَانَ﴾، وقال: ﴿هَذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ﴾، ومدح القرآن بالبيان والإفصاح، وبحسن

التفصيل والإيضاح، وبجودة الإفهام وسماه فرقاناً، وقال: ﴿وَنَزَّلْنَا عَلَيْكَ الْكِتَابَ تِبْيَانًا لِّكُلِّ شَيْءٍ﴾، وقال: ﴿وَكُلَّ شَيْءٍ فَصَّلْنَاهُ تَفْصِيلاً﴾.

* * *

الأدب والأدباء..!

الأدب في اللغة هو التهذيب، والأدب عند الجاحظ بابه الفصاحة، ولقد قرأنا كيف أنه يضع الشرط الأساس للفصاحة وهو التغلب على عيوب اللسان، ومن ثم فإنه يتحدث عن الشعر والشعراء في الجاهلية، ويقول: إن الشاعر كان في الجاهلية مقدَّماً على الخطيب؛ لأن الشعر كان يفي بحاجتهم من تدوين المآثر، وتفخيم الشأن، والتهويل على الأعداء، والترهيب من فرسانهم، والتخويف من كثرة العدد والعُدَّة.!

لكن حين كثر الشعر والشعراء، وتكسَّب الشعراء بالشعر ورحلوا إلى السوقة، وتسارعوا إلى أعراض الناس صار الخطيب عندهم فوق الشاعر..!

ولكن فلنتحدث أعزائي الشباب أولاً عن الشعر والشعراء..!

تعالوا نعرف حكاية نصف البيت الذي هو أحكم وأوجز..!

حكاية: قال أبوعمرو بن العلاء: اجتمع ثلاثة من الرواة، فقال لهم قائل: بيت شعر أحكم وأوجز.؟

فقال أحدهم: قول حُميد بن ثور الهلاليّ:

وحسبك داء أن تصحَّ وتسلما

ولعل حميداً أخذه عن النمْرِ بن تولبٍ، قال النمر:

يُحبُّ الفتَى طُولَ السلامةِ والغنَى فكيفَ ترَى طولَ السلامة يفعلُ

وقال الثاني من الرواة الثلاثة: بل قول أبي فراس الهُذليّ:

نوكَّلُ بالأدنى وإنْ جلَّ ما يمضي

وقال الثالث: بل قول أبي ذؤيب الهذلي:

وإذا تُردُّ إلى قليل تقْنعُ

فقال قائل: هذا من مفاخر هذيل؛ أن يكون ثلاثة من الرواة لم يصبوا في جميع أشعار العرب إلا ثلاثة أنصاف، اثنان منها لهذيل وحدها..!

ومما مدحوا به الإيجاز والكلام قول أبي دُؤاد بن جرير الإيادي:

يَرمُونَ بالخُطَبِ الطوالِ وتارةً وَحْيَ الملاحظِ خيفةَ الرُّقباء

ومما يدل على شغفهم وكلفهم وشدة حبهم للفهم (البيان) والإفهام (التبيين) قول الأسدي في صفة رجل نعت له موضعاً من تلك السباسب التي لا أمارة فيها بأقل اللفظ وأوجزه:

بضربة نعت لم تُعدْ غيرَ أنني عقولٌ لأوصاف الرجالِ ذكورُها

وهو كقولهم لابن عباس: أنَّى لك هذا العلم؟ قال: قلب عقول، ولسان سؤول..!

قال ﷺ في دعائه: «**اللهم اسقنا سقياً نافعاً**». وقال: «**اللهم حوالينا ولا علينا**».

شعراء الحوليات:

ويتحدث الجاحظ عن نوع من الشعراء كان يوالي فحص قصيدته عاماً أو أعواماً ابتغاء التجويد والصقل، ومن هؤلاء الشعراء زهير بن أبي سلمى..

يقول الجاحظ: ومن شعراء العرب من كان يدع القصيدة تمكث عنده حولاً وزمناً طويلاً، يردد فيها نظره ويقلب فيها رأيه، اتهاماً لعقله وتتبعاً على نفسه، فيجعل عقله ذِماماً على رأيه، ورأيه عياراً على شعره، إشفاقاً على أدبه، وإحرازاً لما خوّله الله من نعمته، وكانوا يسمّون تلك القصائد: الحوليات، والمقلدات، والمنقحات، والمحكمات، ليصير قائلها فحلاً وشاعراً مفلّقاً..!

عمر بن الخطاب والشعر:

قال عمر بن الخطاب رضي الله عنه: من خير صناعات العرب الأبيات يقدّمها الرجل بين يدي حاجته، يستنزل بها الكريم، ويستعطف بها اللئيم.

شعراء غلب عليهم شعرهم فتسمّوا به:

وهو باب طريف يسوقه الجاحظ في كتابه الرائع (البيان والتبيين)، ومن هؤلاء البَعيثُ، وعُويفُ القوافي، والمزردُ، والممزَّق..

قال عبدالله بن رؤبة: سأل رجل رؤبة عن أخطب بني تميم، فقال: خدّاش بن بشر بن لبيد -يعني البعيث- وإنما قيل له البعيث لقوله:

تبعثُ منّي ما تُبعث بعدما أُمِرَّتْ حِبالي كل مِرَّتها شزرا

كلام في مقامات الشعراء:

ذكرنا أن الشاعر أرفع قدراً من الخطيب، لأنه يورد مآثر قبيلته ويذكرهم بأيامهم، وأنه لما كثر الشعراء وكثر الشعر صار الخطيب أعظم قدراً من الشاعر.

يقول الجاحظ: إنه ظهر الشعراء الهجاؤون، وهم في الجاهلية: زُهير، وطَرَفَة، والأعشى، والنابغة، وفي الإسلام: جرير، والفرزدق، والأخطل، وكان الكُمَيْتُ والبَعيثُ والطرماح شعراء خطباء، وكان البَعيثُ أخطبهم.

ويؤكد الجاحظ أن الرسول ﷺ كان أبلغ بلغاء العرب، وأنه كان يُؤْثِرُ الإيجاز مع وفرة المعاني..

يقول الجاحظ: والذي يدلك على أن الله قد خصه بالإيجاز وقلة عدد اللفظ مع كثرة المعاني قوله ﷺ: «**أعطيتُ فواتح الكلم، وجوامعه وخواتمه**»، وقال: «**نصرت بالصبا وأُهلكت عاد بالدبور**».

يتحدث الجاحظ كثيراً عن الأدب في باب (كلام في الأدب) ويربط الأدب بالوقاية من عثرات اللسان أو التغلب على العيّ واللثغة، ويورد أقوال القدماء في هذا المجال ومن ذلك يقول الجاحظ:

قال معاوية: ما رأيت سَرَفاً قط إلا وإلى جنبه حق مضيع.

وقال ابن المقفع: الدَّيْن رقّ، فانظر عند من تضع نفسك.

ويورد الجاحظ العديد من الأخبار بشأن دعاء والصالحين والسلف ودعاء الأعراب، ويقول: قال الله تعالى لنبيّه ﷺ: ﴿**قُلْ مَا يَعْبَأُ بِكُمْ رَبِّي لَوْلا دُعَاؤُكُمْ**﴾ [الفرقان: ٧٧]، وقال: ﴿**ادْعُونِي أَسْتَجِبْ لَكُمْ**﴾ [غافر: ٦٠].

وقال أعرابي: اللهم لا تنزلني ماء سوء فأكون امرأ سوء.

* * *

الخطابة والخطباء:

يتحدث الجاحظ عن الخطباء ويقول: إن منهم من يكون شاعراً، ويكون إذا تحدث أو وصف أو احتجّ بليغاً مفوهاً بيناً، وربما كان خطيباً فقط،

وشاعراً فقط، وبيِّناً فقط، ومن الشعراء الخطباء الحكماء: قِسٌّ بن ساعدة الإيادي، وعمرو بن الأهتم المنقري.

أسماء الخطباء والبلغاء وقبائلهم وأنسابهم:

ويفرد الجاحظ مساحة كبيرة من كتابه للحديث عن الخطباء المتميزين، فذكر منهم خطباء البصرة وإياد.

خطباء البصرة:

يقول الجاحظ: كان سوّار بن عبدالله أول تميمي خطب على منبر البصرة، ثم خطب عبيدالله بن الحسن، وولي منبر البصرة أربعة قضاة: بلال وسوار وعبيدالله وأحمد بن رباح.

خطباء إياد:

ومن خطباء إياد يذكر الجاحظ قِسٌّ بن ساعدة الذي قال فيه ﷺ: **«رأيته بسوق عكاظ على جمل أحمر وهو يقول: أيها الناس اجتمعوا فاسمعوا وعوا، من عاش مات، ومن مات فات، وكل ما هو آت آت»**.

أنوا الخطب:

ذكر العرب من أنواع الخطب: العجوز، والعذراء، والبتراء، والشوهاء، والخطبة العجوز لآل رقبة، ومتى تكلموا فلا بد لهم منهم أو من بعضها،

والعذراء وهي خطبة قيس بن سعد بن عبادة، والبتراء هي التي لم يبدأ صاحبها بالتحميد، والشوهاء وهي الخطبة التي لم توشَّح بالقرآن وتزين بالصلاة على النبيّ ﷺ.

نماذج من الخطب:

ويورد الجاحظ العديد من نماذج الخطب، ومن أشهرها خطبة الوداع للرسول ﷺ، وخطبة الأحنف بن قيس.

خطبة الوداع:

ومما قاله ﷺ في خطبة الوداع: «**إن دماءكم وأموالكم حرام عليكم، كحرمة يومكم هذا، في شهركم هذا، ألا كل شيء من أمر الجاهلية تحت قدمي موضوع، ودماء الجاهلية موضوعة، وإن أول دم أضع من دمائنا دم ابن ربيعة بن الحارث، كان مسترضعاً في بني سعد فقتلته هذيل، وربا الجاهلية موضوع، وأول رباً أضع ربانا، ربا عباس بن عبدالمطلب، فإنه موضوع كله، فاتقوا الله في النساء، فإنكم أخذتموهن بأمان الله، واستحللتم فروجهن بكلمة الله، ولكم عليهن أن لا يوطئن فرشكم أحداً تكرهونه، فإن فعلن ذلك فاضربوهن ضرباً غير مبرح، ولهن عليكم رزقهن وكسوتهن بالمعروف وقد تركت فيكم ما لن تضلوا بعده إن**

اعتصتم به، كتاب الله، وأنتم تُسألون عني، فما أنتم قائلون؟» قالوا: نشهد أنك قد بلغت وأديت ونصحت، فقال بإصبعه السبابة، يرفعها إلى السماء وينكتها إلى الناس: «**اللهمَّ أشهد، اللهم أشهد**» ثلاث مرات.

ويعقد الجاحظ مقارنة بين الشعر والنثر، ويورد أقوال الشعراء والأدباء في هذا السبيل.

* * *

الفصاحة العربية ودفا الجاحظ:

عاب الشعوبيون وهم الذين من أصل غير عربي، وذهبوا إلى تحقير شأن العرب والحط من قدرهم وتصغير أمرهم، ويرون ألا فضل للعرب على غيرهم، ومما يأخذون على العرب المخصرة (العصا) عند الكلام، وارتداءهم العمائم، والقيام في خطب الصلح، والجلوس في خطب النكاح، وعدم قدرتهم على القتال ليلاً.. ويقول الجاحظ في الرد عليهم: ليس لكم دليل على أن العرب لا تقاتل بالليل، فقد يقاتل بالليل والنهار من تَحُول دون ماله المدنُ وهولُ الليل، وربما تحاجز الفريقان، وإن كان كل واحد منهما يرى البيات، ويرى أن يقاتل إذا بيتوه وهذا كثير.. ويدلل الجاحظ على صدق رأيه بإيراد العديد من الأشعار العربية التي تحث على القتال ليلاً..

ويورد الجاحظ أيضاً ما ضُرب من الأمثال العربية بالعصا..

ماهية الفصاحة العربية:

تحدث الجاحظ في كتاب البيان والتبيين عن الاستعارة تعليقاً على قول الشاعر:

يا دار قد غيّرها بلاها ... كأنّما بقلم محاها
وطفِقَتْ سحابةٌ تغشاها ... تبكي على عراضها عيناها

قال الجاحظ: طفقت يعني: ظلت عيناها؛ أي السحابة تبكي مطراً.

والجاحظ يعد بحق مؤسس البلاغة العربية، إذ سجل في بيانه وتبيينه آراء العرب والأجانب في البلاغة والفصاحة على نحو غير مسبوق..!

من نوادر الأعراب:

يقول الجاحظ: إنه اعتاد أن يجعل في كتبه السابقة عشر ورقات من نوادر الأعراب وأشعارهم، لكنه في (البيان والتبيين) جعل ذلك أوفر.

قال بعض الأعراب:

ألبانُ إبلِ تَعِلَّةُ بن مُسَافرٍ ... ما دام يملكها عليّ حرام
وطعامُ عمران بن أفى مثلهُ ... ما دام يسلكُ في البطونِ طعامُ
إن الذين يسوغ في أحلاقهم ... زادٌ يمنُّ عليهم لَلِئامُ

لعن الإلهُ تعلةَ بن مسافرٍ لعناً يُشَنُّ عليهِ مِنْ قُدَّامُ

ويتحدث الأعراب عن النعال، فيشيدون بها، بينما تلهج الفرس والشعوبية بذكر الخفاف.

ويتحدث الجاحظ عن الحلي والسمات، أي: العلامات التي تميز بها العرب عن سواهم من الأمم والشعوب، ويورد من الأقوال والأشعار ما لا يحصى ، لكنني أجتزئ لك عزيزي الشاب بقول الفرزدق.

قال الفرزدق:

به ندَبٌ مما يقولُ ابنُ غالبٍ يلوحُ كما لاحت وُسُومُ المُصَدِّقِ

تعقيب عام: تجولنا صديقي الشاب في أرجاء الكتاب القيم (البيان والتبيين) لنظفر بجواهره ونفيس لآلئه.. ولن أغالي إن قلت: إن هذا الكتاب يعد بحق ديوان العرب المجيد، فهو سجل فخارهم ومجدهم، يركز على ما كانوا عليه من بلاغة وفصاحة وذكاء فاق الحدود.. فهل يا صديقي نعيد هذه الأمجاد لنكون كما وصفنا سبحانه وتعالى في كتابه العزيز بقوله: ﴿**كُنتُمْ خَيْرَ أُمَّةٍ أُخْرِجَتْ لِلنَّاسِ تَأْمُرُونَ بِالْمَعْرُوفِ وَتَنْهَوْنَ عَنِ الْمُنكَرِ وَتُؤْمِنُونَ بِاللَّهِ**﴾.

* * *